في الأدب الغربي

لامرتين والخريف

لامرتين شاعر رائق الفكر، سليم الأسلوب، رقيق العبارة. وهو واحد من شعراء فرنسا المجيدين في القرن التاسع عشر. وإليه يعزى الفضل في إحياء الشعر الغنائي الفرنسي الحديث.

حياته:

ولد في ماكون، في اليوم الحادي والعشرين من شهر أكتوبر عام ١٧٩٠. وكان أبوه ملكيا متحمسا. وقد اضطر بعد عهد الارهاب إلى الاعتكاف في ضيعته في بلدة ميي Milly على مقربة من مسقط رأسه ماكون. وهناك شب ونما في أسرة حنون ومناظر طبيعية غاية في الجمال.

وقد القيت مقاليد تربيته إلى قسيس كريم كان لحبه للأقاصيص وكلفه بها أثر كبير في لامرتين، حين كتب قصته «جوسلان Jocelyn». أرسله أبوه بعد ذلك إلى كلية ليون ثم إلى مدرسة بليه Belley الاكليريكية. وكانت دراسته حتى ذلك الحين ضئيلة تافهة قومها بعد خروجه من المدرسة بمطالعاته العديدة، وبانعامه النظر في الطبيعة، وبحريه وراء الأحلام والخيال.

انتظم عام ١٤ في فرقة حرس الملك لويس الثامن عشر، ولم يتركها إلا بعد «المائة يوم». وفي عام ١٨٢٠ نشر بمجموعة من الأشعار باسم «التأملات». وقد لاقت هذه المجموعة نجاحا منقطع النظير، وكان لها أثر كبير في شهرة لامرتين وتوجيه حياته في طريق العظمة والمجد. وفي العام التالي عين كاتما لسر المفوضية الفرنسية بفلورنسا. ونشر عام ١٨٢٣ بمجموعة شعرية جديدة سماها «التأملات الجديدة» ثم دخل، بعد ذلك بسبع سنين، (الأكاديمية الفرنسية) وعكف على الرحلة والأسفار فزار بلاد اليونان وسورية وفلسطين. وكتب عند عودته، سياحة في الشرق.

غير أن الحياة السياسية جذبته اليها فرغب فيها، ومال إليها فرشح نفسه للنيابة وفاز في الانتخاب عام ١٨٣٣ دون ان يكون له آراء أو مبادىء سياسية مرسومة محددة. ثم اندمج شيئاً فشيئاً في صفوف المعارضة. ووجهته أشعاره نحو الاراء الديمقراطية فاستقبلها وحفل بها. ويبدو ذلك جليا واضحا في مؤلفه (تاريخ الجيرونديين) عام ١٨٤٧. وقد ساعد على سقوط الملكية بتمهيد الطريق لثورة يولية ١٨٣٠ التي انتهت بخلع شارل العاشر، وبتنصيب مجلس النواب الفرنسي دوق أورليان (لويس فيليب فيما بعد) ملكا على الفرنسيين. وانتخب لامرتين عام ١٨٤٨ وزيرا للخارجية في الحكومة المؤقتة التي تألفت من الجمهوريين والاشتراكيين حين ملت فرنسا حكم فيليب، إلا أن لامرتين أضطر الى اعتزال السياسة والعودة إلى الحياة الخاصة بعد أن حل لويس نابليون المجلس وشتت أعضاءه عام ١٨٥١.

وقد كانت كهولة لامرتين محزنة اذ اضطر، تحت عبء الحاجة للمال، الى الانقطاع الى الانتاج العاجل المهين لعبقريته والقاتل لذكائه. وقضى في الخامس والعشرين من فبراير عام ١٨٦٩ بعد ان باع اكثر عقاره الموروث.

شعره:

هو شاعر عظيم ولكنه ليس بفنان موهوب، هو «هاوي الشعر» كما يقول هو عن نفسه. وهو لايستطيع حين يعوزه الوحي والالهام ان يفعل مثل غيره من الشعراء فيلجأ الى كفاءته ومقدرته في الصياغة والتاليف ليسد بها حاجته وليشبع بها رغبته. غير ان مجموعة اشعاره الاولى «التاملات» تكفي من غير شك لان تجعل من لامرتين شيخا للشعر الفرنسي الحديث. وقد ساعد على ذلك ان مجموعته الشعرية هذه تضمنت كل الصفات الغنائية التي فاتت شعراء القرن السالف الذين كانوا ينظمون أشعارا موسيقية في كل الموضوعات دون ان يفيضوا عليها شيئاً من ارواحهم. أما لامرتين فينشدنا ما أحس «من فرح أو حزن، ومن سرور أو ألم، ومن راحة او وصب

وعبقرية لامرتين فى مرونة اشعاره وتنوعها وفى تعبيره الدقيق عن العواطف السامية والافصاح عنها الافصاح كله

وهو شاعر الطبيعة . عرف روح الاشياء وكنهها دون ان يتجشم مرة محاولة تصويرها وتلوينها ، وهو يحب على الأخص ساعات الغسق وفصل الخريف الذى تمتزج بمظاهره الاخيلة والاوهام فى رقة وعذوبة . وهكذا يتلاشى فكره ، الذى ليس له من غاية محدودة ، فى سحابات مبهمة عديدة ، وهو بعد ذلك يعرف كيف يستخلص لنا منها فكرة ويفصح عما يجول فى خاطره في موسيقى عذبة جذابة .

وقد بلغ لامرتين بوضوح الاسلوب وصفائه ، وتوافق نظمه وايقاعه — وهما خلتان لازمتان للكاتب — درجة لم يبلغها شاعر قط. وقد ابدع لامرتين — دون تكلف أو جهد او صقل — فى نظم اشعاره وترقيقها وتنغيمها . غير ان البساطة والسهولة اللتين نظم بهما اشعاره اساءتا اليه من حيث لايدرى . فقد جعلتاه عرضة للسهو واستعمال العبارات المبهمة الغامضة ، والقوافى النابية الركيكة وذلك نجده بوضوح حتى فى القطع الجيدة القليلة من شعره .

مؤلفاته :

كتب لامرتين ، غير اشعاره الغنائية التى اشهرها « التأملات الشعرية » و« التأملات الجديدة » اشعارا أخرى قصصية وفلسفية نذكر منها « موت سقراط » و« جوسلان » و« سقوط ملاك » . هذا الى مجموعة من المذكرات والقصص مثل « رحلة فى الشرق » « روفائيل » « جرازيلا » . وقد كتب ايضا فى التاريخ « تاريخ الجيرونديين » ولم ينس فى أخريات أيامه ان يكتب « دروسا عامة فى الادب » .

والقطعة التي اعرض لترجمتها اليوم هى قطعة من مجموعة اشعاره التأملات الاولى . وقد كتبها فى خريف عام ١٨١٩ . ولم تكن حالته الصحية وقتئذ على حال من الثبات والاستقرار . فقد كان نهبا لشتى آلام وعلل . هذا الي صدمة تلقاها من قبل ، اذ رفضت خطبته الآنسة ماريان اليسا بيرسن الانجليزية التي أصبحت له فيما بعد زوجة . وهو يشير فى الفقرة السابعة الى هذا الامل الضائع .

وقد اوحى بها الى لامرتين نوبة حادة من الحزن والكمد وقد صار موضوعها من الموضوعات التي يتميز بها شعر جماعة (الروماتنكيين) . فالخريف ؛ صورة من الفناء والموت ، يحمل بين طياته الحسرة والندم على السعادة الذاهبة .

وقد كتب فى هذا الموضوع نفر من الشعراء الانجليز والفرنسيين الا أن لامرتين أسبغ عليه فيضا من التعبيرات الدقيقة استخلصها من حس رقيق وخيال واسع وقريحة خصبة . قال :

— ١ —

سلام عليك ايتها الخمائل المكللة بفضلة من الخضرة ! ويا ايتها الاوراق المصفرة المتناثرة على العشب ، سلام عليك أيتها الايام الاخيرة الجميلة ! ان حداد الطبيعة يلتئم والمى ، ويتفق ومشاربى .

— ٢ —

وهأنذا اسير فى الطريق المنعزل حالما مفكرا ، ويحلو لى ان ارى ثانية وللمرة الاخيرة الشمس الكاسفة ، وقد أخذ شعاعها الواهى الضئيل يكشف الطريق بعد لأى لقدمى وسط ظلمة الخمائل الحالكة

— ٣ —

حقاً انى اجد فى لحاظ الطبيعة المحجبة حين تقضى في ايام الخريف جاذبية وسحرا ، انها وداع صديق ، بل هي ابتسامة لشفتين سيلجمهما عما قريب الموت الى الابد .

— ٤ —

وهأنذا وقد شارفت أفق الحياة ، ما زلت اتلفت وانا ابكى امل ايامى الطويلة المتلاشى ، وانعم نظرى فى حزن وحسرة فى محاسن الحياة التي لم اتمتع بها بعد .

— ٥ —

يا ايتها الغبراء ، ويا شمس ، ويا وديان ، و يا ايتها الطبيعة الجميلة الحلوة ، اني مدين لكن بدمعة وانا على حافة قبرى ! ما اعبق النسائم بالعطور ! وما انقى الضوء ! وما اجمل الشمس فى نظر المحتضر !

— ٦ —

كم أود الآن ان استشف هذه الكأس وقد امتزج فيها الرحيق بالمر . فلربما تبقى لى فى هذه الكأس التى اتناول فيها الحياة ، قطرة من الشهد

— ٧ —

ولربما اخفى لى المستقبل ايضا فى ثناياه أوبة لسعادة ضاع الأمل فيها ! ولربما تفهم نفسى ؛ من بين الصفوف ، نفس اجهلها فتجيبنى ! ...

— ٨ —

تسقط الزهرة تاركة عطرها للريح الدبور ، وهذا وداعها للحياة وللشمس . وهأنذا اموت ! وروحى حين تفيض تتصاعد كرجع صوت حزين شجى

محمود فهمى ادريس
ليسانسيه فى اللغة الفرنسية وادبها

(الرسالة) نشرنا هذه المقالة تشجيعا لشبابنا الناشئين فى الادب ولعلهم قبل أن يفكروا فى الكتابة يستكملون أداتها الضرورية من نحو وبيان ، فان اهمال ذلك شر ما يؤاخذ به الكاتب .